6 - السيدة تماضر بنت عمرو (الخنساء)

نسبها

اسمها تماضر، سُميت بذلك لشدة بياضها، وينتهي نسبها إلى قبيلة مُضَر التي اعتبرها النبي ﷺ حصن القبائل العربية، والدها عمرو بن الحارث، وأخواها في الجاهلية صخر ومعاوية، وكانت تُكِنُّ لهما أعمق الحب، فلما قُتلا بكتهما بكاء مرّاً، وسكبت عليهما سخين العبرات، حتى احتلَّ رثاؤها لهما معظم ديوانها، وكشفت بذلك عن مقدرةٍ فذَّةٍ في قرض الشعر، وثراءٍ بمفردات اللغة عريض.

لقبها

وقد لُقِّبت بالخنساء، وهي صفة تعني انخفاض قصبة الأنف، أو تأخر الأنف عن الوجه، وكان رسول الله ﷺ يدعوها: «خُنَاس»، وقد غلب لقبها على اسمها، شأنها في ذلك شأن الكثيرين.

زوجها

كان زوجها يُدعى رواحة بن عبد العزيز السلمي، وقد ولدت له أربعة أشبال خرجوا جميعاً إلى القادسية لقتال الفرس، لكنهم آثروا لقاء الرحمن على العودة إليها.

كانت الخنساء تملك من المروءة، والشهامة، والبطولة، والشجاعة، والفصاحة، والوفاء، والإخلاص، والجمال الساحر، والذكاء النادر ما جعلها محط أنظار كبراء قومها، لكنها اختارت من بين خُطَّابها رواحة، كان بنوها الأربعة خيار قومهم في الجاهلية فلما اعتنقوا الإسلام أصبحوا مفخرة العرب والمسلمين.

الخنساء الشاعرة

والحق أن الخنساء كانت ذات شخصيتين تختلف كلٌّ منهما عن الأخرى أيَّما اختلاف، فقد فرضت عليها الجاهلية أعرافها وتقاليدها وعاداتها، ولما قُتل أخواها صخر ومعاوية حبست نفسها على بكائهما، وفجَّرت بحار دموعها حتى كادت مدامعها تمتنع عن إسعافها بما تريد، وقد دعاها حزنها العميق على أخويها لتسخير قريحتها الشعرية لرثائهما.

ولم تكتفِ الخنساء بما ذرفته عيناها عليهما من العبرات، بل استطاعت بجدارةٍ أن تستدرَّ مدامع من سمعوا مراثيها فشاطروها بكاءها ونحيبها، وشاركوها في سكب الدموع، وهذا ما حدا بالنقاد إلى اعتبارها شاعرة الرثاء دون منازع.

وهذه نماذج من رثائها، قالت:

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلَا تَجْمُدَا ... أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
أَلَا تَبْكِيَانِ الجَرِيْءَ الجَمِيْلَ ... أَلاَ تَبْكِيَانِ الفَتَى السَّيِّدَا
رَفِيْعَ العِمَادِ طَوِيْلَ النِّجَا ... دِ سَادَ عَشِيْرَتَهُ أَمْرَدَا
جَمُوعَ الضَّيُوفِ إِلَى بَيْتِهِ ... يَرَى أَفْضَلَ الكَسْبِ أَنْ يُحْمَدَا
وَإِنْ ذُكِرَ المَجْدَ أَلْفَيْتَهُ ... تَأَزَّرَ بِالمَجْدِ ثُمَّ ارْتَدَى
غِيَاثَ العَشِيْرَةِ إِنْ أَمْحَلُوا ... يُهِيْنُ التِّلاَدَ وَيُحِيْي الجَدَا

وقالت ترثيه:

قَذًى بِعَيْنِكِ أَمْ بِالعَيْنِ عُوَّارُ ... أَمْ ذَرَّفَتْ إِذْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ ... فَيْضٌ يَسِيْلُ عَلَى الخَدَّيْنِ مِدْرَارُ
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحُقَّ لَهَا ... إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ
وَإِنَّ صَخْراً لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا ... وَإِنَّ صَخْراً إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وَإِنَّ صَخْراً لَمِقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا ... وَإِنَّ صَخْراً إِذَا جَاعُوا لَعَقَّارُ
وَإِنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَدْ كَانَ خَالِصَتِي مِنْ كُلِّ ذِي نَسَبٍ فَقَدْ أُصِيبَ فَمَا لِلْعَيْشِ أَوْطَارُ

غير أن أجمل ما قالته في رثاء صخر قولها:

يُؤَرِّقُنِي التَّذَكُّرُ حِينَ أُمْسِي فَأُصْبِحُ قَدْ بُلِيتُ بِفَرْطِ نُكْسِ
عَلَى صَخْرٍ وَأَيُّ فَتًى كَصَخْرٍ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ خُلْسِ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رُزْءاً لِجِنٍّ وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رُزْءاً لإِنْسِ
أَلَا يَا صَخْرُ لَا أَنْسَاكَ حَتَّى أُفَارِقَ مُهْجَتِي وَيُشَقَّ رَمْسِي
يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْراً وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ
وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي
فَقَدْ وَدَّعْتُ يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ أَبِي حَسَّانَ لَذَّاتِي وَأُنْسِي

إن حب الخنساء لصخر لم يكن من جانبٍ واحدٍ، فقد كان صخر يبادلها الحب، ويقاسمها ماله، أفلا تكون وفيةً له! والوفاء كان إحدى شمائلها؟!.

روي أن الخنساء دخلت على السيدة عائشة ﵂ وعلى جسدها صِدارٌ من شَعَرٍ، فقالت لها أم المؤمنين: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد توفي رسول الله ﷺ فما لبسته قالت: إن له معنى دعاني إلى لباسه، فقد زوَّجني أبي سيد قومه، وكان رجلاً متلافاً، فأسرف في ماله، حتى أنفده، ثم رجع إلى ماله فأنفده أيضاً.

فأتينا أخي صخراً، فقسم ماله شطرين ثم خيَّرنا في أحسن الشطرين، فرجعنا من عنده على حالٍ حسنةٍ، فلم يزل زوجي حتى أذهبه جميعه، وعدنا إلى صخر، فقسم ماله شطرين، ثم خيَّرنا في أفضل الشطرين، فقالت له زوجته: أما ترضى أن تشاطرها مالك حتى تُخيِّرها بين الشطرين؟ فقال:

وَاللهِ لاَ أَمْنَحُهَا شِرَارَهَا فَلَوْ هَلَكْتُ قَدَّدَتْ خِمَارَهَا
وَاتَّخَذَتْ مِنْ شَعَرٍ صَدَارَهَا

فآليت ألاَّ يفارق الصِّدار جسدي ما بقيت!، لقد كان مسرفاً في عطائه حين شاطرها ماله مرتين، أفلا تبادله سرفَ ماله بسرفٍ من دموعها ما دامت مآقيها تستجيب؟

وأما معاوية فقالت في رثائه:

أَلَا لَا أَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَ مُعَاوِيهْ إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِدَاهِيَهْ
بِدَاهِيَةٍ يُصْغِي الكِلَابَ حَسِيْسُهَا وَتَخْرُجُ مِنْ سِرِّ النَّجِيِّ عَلاَنِيَهْ
وَكَانَ لِزَازَ الحَرْبِ عِنْدَ شُبُوبِهَا إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا وَهْيَ ذَاكِيَهْ
وَقَوَّادُ خَيْلٍ نَحْوَ أُخْرَى كَأَنَّهَا سِعَالٍ وَعُقْبَانٍ عَلَيْهَا زَبَانِيَهْ
بُلِيْنَا وَمَا تَبْلَى تَعَارُ وَمَا تَرَى عَلَى حَدْثِ الأَيَّامِ إِلاَّ كَمَا هِيَهْ
فَأَقْسَمْتُ لَا يَنْفَكُّ دَمْعِي وَعَوْلَتِي عَلَيْكَ بِحُزنٍ مَا دَعَا اللهَ دَاعِيَهْ

وسألها ذات يوم عمر بن الخطاب ﷺ: ما أقرح مآقيك؟ قالت: بكائي على السادات من مضر، فقال لها ﷺ: يا خنساء، إنهم في النار فقالت: ذاك أطول لعويلي عليهم، وقالت: كنت أبكي صخراً على الحياة، فأنا اليوم أبكي له من النار.

ولما سئل جرير الشاعر: من أشعر الناس؟ قال: أنا لولا الخنساء، قيل له: بم فضَّلتها؟ قال: بقولها:

إِنَّ الزَّمَانَ وَمَا يَفْنَى لَهُ عَجَبٌ أَبْقَى لَنَا ذَنْباً وَاسْتُؤْصِلَ الرَّاسُ
إِنَّ الجَدِيْدَيْنِ فِي طُوْلِ اخْتِلَافِهِمَا لاَ يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

وقول جرير يدل على طول باعها، ورسوخ قدمها في ميدان الشعر، ولا يَعرف الدينار الزائف من الصحيح إلاَّ الصَّرَّافون!.

إسلامها

لقد كان موقف الخنساء من أخويها مطبوعاً بطابع البيئة التي تربَّت في أحضانها، غير أن تلك البيئة ما كان لها أن تستمر وتدوم، فقد بزغت شمس

الإسلام الحنيف، ووصلت بعض شعاعاتها إلى قلب خُناس فغسلته، وطهَّرته، ونقَّته من رواسب الجاهلية، وحوَّلت صاحبته خلقاً جديداً، وغدت تماضر تعتزُّ بإسلامها وتباهي به، ولكن كيف أسلمت تلك المرأة؟ وما الذي غيَّر شخصيتها؟.

لقد خرجت الخنساء مع بنيها في وفد بني سُليم للقاء رسول الله ﷺ وأعلن الجميع إسلامهم، وولاءهم لله الواحد الأحد، ولرسوله خير الأنام، عليه الصلاة والسلام، ولما سمع النبي ﷺ شعرها جعل يستزيدها، ويقول: **«هِيه يَا خُنَاسُ»**، ويومىء بيده إليها مستزيداً.

ولكن ماذا دار بين رسول الله ﷺ ووفد طيئ حين جاؤوا إليه ليدخلوا في دين الله مختارين راغبين؟ لقد قَدِمَ عديُّ بن حاتم وأخته سفَّانة بنت حاتم ووفد من طيئ، فلما أسلموا قال عدي: يا رسول الله، إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس فقال له النبي ﷺ: **«سَمِّهِمْ»** فقال عدي: أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد الطائي - يعني: أباه - وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب.

فقال رسول الله ﷺ: **«لَيْسَ كَمَا قُلْتَ يَا عَدِيُّ، أَمَّا أَشْعَرُ النَّاسِ فَالخَنْسَاءُ بِنْتُ عَمْرٍو، وَأَمَّا أَسْخَى النَّاسِ فَمُحَمَّدٌ** - يَعْنِي: نَفْسَهُ - **وَأَمَّا أَفْرَسُ النَّاسِ فَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»**، وتلك أغلى شهادةٍ حصلت عليها الخنساء من سيد البشر، وأنبل البشر، وأكرم البشر.

الأم الشجاعة الصابرة

وجاءت القادسية، يوم امتُحنت الخنساء في إيمانها، وكان أصعب امتحانٍ، ولكن ماذا كانت نتيجته؟ وهل رسبت فيه أم كانت من المتفوقات؟ وما إخالها ترضى بغير التَّفوُّق بديلاً!.

حين سمعت الخنساء وبنوها الأربعة نداء الداعي للخروج إلى القادسية، بادر أشبالها الأربعة كلٌّ منهم إلى لأْمَته فارتداها، ووقفت اللبؤة العجوز لتشيعهم، وتملأ عيونها منهم، فلعل تلك اللحظة آخر عهدها بهم،

ثم قالت لهم: أَيْ بَنِيَّ، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو رجلٍ واحدٍ كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هَجَّنْتُ حسبكم، ولا غيَّرتُ نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 200]، فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله تعالى سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظًى على سياقها، وجللت ناراً على أوراقها، فتيمَّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، والخلد في المقامة.

كانت أروع شحنة حماسٍ يمكن أن تقدمها أم مؤمنة في نفوس بنيها المؤمنين، وهم ينطلقون إلى لقاء عدوٍّ جاحد غشوم، ورأى أولئك البررة في وصية أمهم زاداً وافياً يبلغهم إلى أرض المعركة، ونوراً يضيء لهم ساحتها، حتى ينالوا من عدوهم ما يبتغون.

ثم تهيَّأ الفتية للقتال وأعطوا أمهم مواثيقهم على انتزاع النصر أو الفوز بثانية الحسنيين بإذن ربهم العزيز الحميد.

وانصرفوا عنها، ودعواتها ترنُّ في آذانهم، وتبعث فيهم القوة والنشاط، وتدفع الخوف والتردُّد والجبن الكريه، إنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم هدًى، وكانوا بررة بأمهم، مشحونين بالحقد على عدوهم، متسلحين بقوة إيمانهم، فأي شيء يهابون؟.

وبدأ القتال، وبرز أول الأشبال، وأخذ يرتجز ويقول:

يَا إِخْوَتِي إِنَّ العَجُوْزَ النَّاصِحَهْ ... قَدْ نَصَحَتْنَا إِذْ دَعَتْنَا البَارِحَهْ
بِقَوْلَةٍ ذَاتِ بَيَانٍ وَاضِحَهْ ... وَإِنَّمَا تَلْقَوْنَ عِنْدَ الصَّابِحَهْ
مِنْ آلِ سَاسَانَ كِلَاباً نَابِحَهْ ... قَدْ أَيْقَنُوا مِنْكُمْ بِوَقْعِ الجَائِحَهْ
وَأَنْتُمُ بَيْنَ حَيَاةٍ صَالِحَهْ ... أَوْ مِيْتَةٍ تَوْرِثُ غُنْماً رَابِحَهْ

وظلَّ يقاتل ببسالة وشجاعة فائقة حتى فاز بالشهادة، ثم تقدَّم الثاني، وأخذ يرتجز ويقول:

إِنَّ العَجُوْزَ ذَاتَ حَزْمٍ وَجَلَدْ وَالنَّظَرِ الأَوْفَقِ وَالرَّأْيِ السَّدَدْ
قَدْ أَمَرَتْنَا بِالسَّدَادِ وَالرَّشَدْ نَصِيْحَةً مِنْهَا وَبِرّاً بِالوَلَدْ
فَبَادِرُوا الحَرْبَ حُمَاةً فِي العَدَدْ إِمَّا لِفَقْدٍ بَارِدٍ عَلَى الكَبِدْ
أَوْ مِيْتَةٍ تُوْرِثُكُمْ عِزَّ الأَبَدْ فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ وَالعَيْشِ الرَّغِدْ

وظلَّ يقاتل ببسالة وشجاعة فائقة حتى فاز بالشهادة، ثم تقدَّم الثالث، وأخذ يرتجز ويقول:

وَاللهِ لَا نَعْصِي العَجُوْزَ حَرفَا قَدْ أَمَرَتْنَا حَدَباً وَعَطْفَا
نَصْحاً وَبِرّاً صَادِقاً وَلُطْفَا فَبَادِرُوا الحَرْبَ الضَّرُوْسَ زَحْفَا
حَتَّى تَلُفُّوا آلَ كِسْرَى لَفَّا أَوْ تَكْشِفُوهُمْ عَنْ حِمَاكُمْ كَشْفَا
إِنَّا نَرَى التَّقْصِيْرَ مِنْكُمْ ضَعْفَا وَالقَتْلَ فِيْكُمْ نَجْدَةً وَزُلْفَا

وظلَّ يقاتل ببسالة وشجاعة فائقة حتى فاز بالشهادة، ثم تقدَّم الرابع، وأخذ يرتجز ويقول:

لَسْتُ لِخَنْسَاءَ وَلَا لِلأَخْزَمِ وَلاَ لِعَمْرِو ذِي السَّعَاءِ الأَقْدَمِ
إِنْ لَمْ أَرِدْ فِي ذَا الخَمِيْسِ الأَعْجَمِ مَاضٍ عَلَى الهَوْلِ خِضَمٌّ خَضْرَمِ
إِمَّا لِفَوْزٍ عَاجِلٍ وَمَغْنَمِ أَوْ لِوَفَاةٍ فِي سَبِيْلِ الأَكْرَمِ

وظلَّ يقاتل ببسالة وشجاعة فائقة حتى فاز بالشهادة، ليجاور إخوته في الممات كما جاورهم في الحياة، رحمهم الله رحمة واسعة.

وعاد أبطال القادسية منتصرين ولم يعد أشبال الخنساء، فانطلقت إلى موقع المعركة لتسقط أخبارهم، وتنسم عبيرهم، ورحم أحد العائدين عجزها، فاقترب منها وقال: لقد استُشهد بنوك، مقبلين غير مدبرين، وهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وتجلّى إيمان الخنساء بأبهى صورة، فلم تخمش وجهاً، ولم تقطع ثوباً، ولم تَحْثُ على رأسها التراب، لأن صلتها بالجاهلية قد انقطعت إلى الأبد، والإسلام الذي ارتضته ديناً يرفض ذلك، وانفرجت شفاه المؤمنة الصادقة لتقول: الحمد لله الذي شرَّفني باستشهادهم جميعاً، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

إنه عهد الإيمان لم تستطع أن تحنث به أو تخيس، وبقيت محافظة عليه حتى لقيت وجه ربها راضية مرضية في السنة الرابعة والعشرين للهجرة، رَحمها الله ورضي عنها، ورحم شهداءها، وشهداء المسلمين، لقد نجحت في امتحانها بقوة إيمانها، فجزاها الله خير الجزاء.